أحمد حاطوم

■ العلمانية التي يتَّرد بطيفها كل مُكْتَو بسواها، ويتعلق بحبالها كل غريق؛ التي تشكل قضية كبيرة من قضايانا، هي، أيضا، مسألة لغوية تتناول كلمتها، وتحقق في صيغتها، على ما بين المسألة والقضية من البون. اننا، في زمن نكاد نختنق في أنفاقه، انما نفزع الى المسألة لعجزنا عن القضية.

●

لقد شاع، في بعض الأوساط، ان كلمة «علمانية» انما هي بفتح العين وليس بكسرها: لأنها مشتقة من «العَلْم» المفتوح العين الساكن اللام، الذي هو العالم الدنيوي، وليس من «العِلْم»، المكسور العين، الذي هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة.

ونحن، مذ عرفنا هذا التصور، كان لنا منه موقف ظل كلاما في الضمير، يقبع فيه كالسديم، حتى وقع الينا، من مجلة «آفاق» البيروتية، عدد قديم[1] مخصص للعلمنة، استوقفنا منه، عن كلمة «علمانية» وصياغتها، رأي يمكن ان يكون له صفة الافتاء: لأنه صادر عن لغوي له عندنا مرتبة الافتاء، ونعني أستاذنا الجليل الشيخ عبد الله العلايلي.

●

وبما ان رأي الشيخ متفق مع التصور الشائع، مؤيد له، مثبت عليه، ولأننا، شخصيا، نرفض هذا التصور ونخالف الشيخ، فقد رأينا المشاركة في بحث المسألة وطرح ما استوى. اننا نبدأ بمناقشة الشيخ، وتفنيد التصور، ثم ننتقل الى تصورنا نعرض منه ما يتاح.

●

بحث العلايلي لمصطلح «العلمانية» بحث مقتضب يشغل فقرتين تمتدان على أربعة عشر سطرا، من كلمة بالغة الايجاز، صُدِّر بها عدد المجلة المذكور، لا تجاوز صفحة ونصف الصفحة.

قال الشيخ في فقرته:

«العلمانية كلمة وضعت بادىء ذي بدء[2] في أواسط القرن التاسع عشر في مقابل كلمة Laicisme بالفرنسية أو Secularism بالانكليزية. وكان أسبق الواضعين لها اللغوي التركي شمسي واقتبسها عنه المعلم بطرس البستاني في معجمه محيط المحيط، كما تبناها الدكتور خليل سعادة في معجمه الكبير الانكليزي ـ العربي، وشاعت شيوعها الكبير بين الناس بكسر العين وهو خطأ فاحش اذ لا علاقة للأصل اللاتيني بالعلم من قرب او من بعد وإنما صحتها بفتح العين نسبة الى العلم (بفتح الأول وتسكين الثاني) بمعنى العالم الدنيوي وذلك بزيادة الألف والنون.

وبتأصيل هذه الكلمة صرفوها تصريف المزيد من الأفعال او الملحق بالمزيد فقالوا «علْمَن السلطة» أي جعلها بأيدي العامة الشعبية وهذا متفق مع الأصل اللاتيني لأن الـ Laicisme تعني الاشاحة عن الانتساب الى فئة الكهنوت فهي مفرغة من أي محتوى إيجابي وأعني خلوا من أي مفهوم معتقدي ولذا درج الباحثون الاجتماعيون على مصطلحي العلمانية المؤمنة والعلمانية الملحدة وساعدهم على هذا انها بنفسها وضعا واستعمالا لا تشتمل على محتوى معين»[3]

* * *

١ ـ بأي صيغة جاءت ولادة الكلمة العربية، في أواسط القرن التاسع عشر؟ هل جاءت بصيغة النسبة النعتية، («علماني»)، ام بصيغة النسبة المصدرية، («علمانية»)، ام بصيغة المصدر، («علمنة»)، أم جاءت بصيغة أخرى؟

٢ ـ في أي سياق كانت الولادة، في سياق الترجمة، أم في سياق الكلام

(١) مجلة «آفاق»، عدد خاص، بيروت، حزيران ١٩٧٨.
(٢) كذا وردت كلمة «بدء» في النص. ولا ندري هل هو وجه املائي، لغوي لها، أم أن في المسألة خطأ مطبعيا.

عن العلمنة ومضمونها؟

٣ـ اللغوي التركي شمسي، الذي قال الشيخ انه كان أسبق الواضعين للكلمة، من هو، وما هو، ومتى عاش؟ هل هو تركي النسب عربي اللسان، أم هو من الأعاجم الذين درسوا لساننا؟ واذا كان أسبق الواضعين للكلمة العربية، فمن هم الواضعون الآخرون، وما دورهم، وكيف كان التكامل بينهم؟ الخ...

* إننا نرى أن تأريخاً لكلمة «علمانية»، أو أي كلمة سواها، لا يكون تأريخا مقبولا، على الأقل في مثل المقام الذي اندرجت كلمة الشيخ فيه، الا اذا أحاط، من الموضوع، بجوانب تشير اليها اسئلتنا.

٤ـ اننا، برجوعنا الى «لسان العرب»، والتنقيب في المساحة المترامية لمادة «ع ل م»، التي تشغل صفحات خمسا كاملات، لم نجد أثرا للصيغة التي انطلق منها الشيخ واستند اليها في وصف الجانب الاشتقاقي لكلمة «علمانية»، لم نجد أثرا لـ «العَلْم» المفتوح العين الساكن اللام، بمعنى العالم الدنيوي المقابل للعالم الديني.

فـ «العَلْم»، المفتوح العين الساكن اللامم، قد ورد في هذا المعجم بمعنيين اثنين يندرجان في قوله:

ـ «عَلَمْتُه اعْلِمُه عَلْماً، مثل: كسرته أكسره كسراً: شققتُ شفته العليا، وهو الأعلم. قال ابن السكيت: العلم (بفتح فسكون): مصدر علَمْتُ شفته أعلمها علْماً والشفة علماء.

ـ عَلَمَهُ يَعْلُمُه (بضم اللام)، ويَعْلِمه (بكسرها) عَلْماً (بفتح فسكون): وسَمَهُ (بفتح ففتح)».

٥ـ فاذا كان «العلم»، (بفتح فسكون)، هو الوسم أو شق الشفة العليا (الذي هو نوع من الوسم، أي العلامة)، فمن أين جاء الشيخ للكلمة بالمعنى الذي أورده وبنى رأيه عليه، معنى العالم الدنيوي المقابل للمعنى الديني؟

٦ـ جاء في القاموس الفرنسي المشهور، قاموس اللاروس، أن كلمة Laique الفرنسية مشتقة من كلمة Laicus اللاتينية، المشتقة، بدورها، من كلمة Lakos اليونانية، وأن معنى الكلمتين كلتيهما هو: ما يتعلق بالشعب (qui appartient au peuple). ولم يورد هذا القاموس ما يشير، لا من قرب ولا من بعد، الى معنى العالم الدنيوي المقابل للعالم الديني.

٧ـ وبمزيد من التحديق في الموضوع نسأل: هل هذا الذي ورد في الفقرة السابقة ينفي ان تقوم السلطة الدينية على الديموقراطية، فتكون سلطة دينية شعبية[2]؟ أو أن تقوم السلطة الدنيوية على الديكتاتورية، فتكون سلطة دنيوية فردية[3]؟ ألا يفضي ذلك الى فك الترابط، وسقوط الترادف، بين دنيوية السلطة وشعبيتها، بين دينية السلطة وفرديتها؟

٨ـ العلمانية او العلمنة، في التصور الغربي، وبحسب قاموس «روبير» الفرنسي المعروف، هي، حرفيا، «فصل المجتمع المدني عن المجتمع الديني، ولا يكون للكنيسة أي سلطة سياسية»، سواء أكانت الدولة ديموقراطية تستمد سلطتها من الشعب، كما هي الحال في دول أوروبا الغربية، أم كانت توتاليتارية تستمد سلطتها من الحزب الواحد، كما هي

اليوناني والعلم، انما هو عبث نحاول به ان نربط عنصرين ليس بينهما ما يربط.

*

وبمزيد من التأمل في الموضوع نحاول بلورة ما قدمنا:

ـ ان تأريخ الشيخ لكلمة «علمانية» العربية هو تأريخ سريع يفتقر الى مزيد من الوضوح، (كما يتبين من الأسئلة التي طرحناها).

ـ ان الأساس اللغوي الاشتقاقي الذي بنى عليه أساس واه منقطع الجذور.

ـ انه، يرفضه للكسر الذي قال عنه: انه كثير الشيوع، وإيثاره للفتح الذي لا يمكن، استنتاجا، الا ان يكون قليل الشيوع، انما يمس قانونا مركزيا من قوانين اللغة، ونعني قانون التحكم الذي يقوم الشيوع عليه. (وقانون التحكم / L'arbitraire ، كما نعلم، هو من الكليات التي تطرحها الألسنية الحديثة أساسا بارزا من أسس اللغة (وهو ما لمحه الشيخ نفسه وأشار اليه في مقدمة المعجم الكبير[1] الذي شرع في اصداره سنة ١٩٥٤ ثم توقف).

ـ انه، يرفضه ان تكون كلمة «علمانية» نسبة الى «العلم» المكسور العين، انما حرم اللسان العربي من تميز في صوغ الكلمة سنشير اليه.

*

ونأتي الى القسم الأخير من بحثنا، لنقول مباشرة ما قلناه بكلام غير مباشر، ونطرح تصورنا للمسألة.

اننا نرى، بكل بساطة، ان كلمة «علمانية» هي نسبة مزيدة بالألف والنون الى كلمة «علم» المكسورة العين، وأنها نموذج بعينه من نماذج هذه النسبة التي منها مثلا: روحاني، نفساني، جسماني، عقلاني، الخ...

ونحن، في هذا التصور، إنما نطبق المبدأ الوصفي المعتمد في الدراسة الحديثة للغة، وننطلق، مع هذا المبدأ، من حاضر اللغة المتحقق، الواقع في دائرة الحس والادراك، وليس من ماضيها المتخيل، الواقع في دائرة الظن والتخمين.

وإذا كنا لا نملك، من نشأة الكلمة التي تعنينا، ما يجاوز الظن والتخمين، أفترانا نتشبث بالظن والتخمين، لنبحث، بهما، للكلمة، عن نسب ضائع، ثم نلفق لها نسبا يقارب نسبا عثر عليه الآخرون لكلمتهم في تربة اللاتين او اليونان، ويكون ذلك منا لأن العلم الذي نندفع بحسنا الى النسبة اليه، في مرحلة برز فيها الاندفاع إليه، لا يرتبط بالأصل اللاتيني ـ اليوناني، كما يرى الشيخ؟

إن الضمير اللغوي العربي، الذي فرز النسبة المزيدة بالألف والنون، كشكل عام من أشكاله الصرفية، والذي ما زال أبناؤه يفرزون النماذج اللسانية المشخصة لهذه النسبة، في كل زمان ومكان، (شخصاني، تاريخاني، شكلاني، فرداني، عملاني، الخ...)، انما يجسد مضمونا نحويا يحس أبناء اللسان ان النسبة المجردة لا تؤديه. إنهم يحسون ان ثمة فرقا بين «روحي» و«روحاني»، بين «عقلي» و«عقلاني»، بين «شخصي» و«شخصاني»، بين «علمي» و«علماني»، الخ...، دون ان يكونوا

(٣) أوردنا الكلام بنصه الحرفي وصورته التي أثبت بها في المرجع المذكور في الحاشية الأولى، وأحجمنا عن ضبطه بما يفتقر اليه من علامات الوقف، من نقطة، أو فاصلة أو ما شابه.

(٤) كسلطة الخليفة الراشدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلمة Lakos اليونانية، وأن معنى الكلمتين كلتيهما هو: ما يتعلق بالشعب (qui appartient au peuple). ولم يورد هذا القاموس ما يشير، لا من قرب ولا من بعد، الى معنى العالم الدنيوي المقابل للعالم الديني.

٧ـ ويمزيد من التحديق في الموضوع نسأل: هل هذا الذي ورد في الفقرة السابقة ينفي ان تقوم السلطة الدينية على الديموقراطية، فتكون سلطة دينية شعبية[٤]؟ أو أن تقوم السلطة الدنيوية على الديكتاتورية، فتكون سلطة دنيوية فردية[٥]؟ ألا يفضي ذلك الى فك الترابط، وسقوط الترادف، بين دنيوية السلطة وشعبيتها، بين دينية السلطة وفرديتها؟

٨ـ العلمانية او العلمنة، في التصور الغربي، وبحسب قاموس «روبير» الفرنسي المعروف، هي، حرفيا، «فصل المجتمع المدني عن المجتمع الديني، ولا يكون للكنيسة أي سلطة سياسية»، سواء أكانت الدولة ديموقراطية تستمد سلطتها من الشعب، كما هي الحال في دول أوروبا الغربية، أم كانت توتاليتارية تستمد سلطتها من الحزب الواحد، كما هي الحال في بعض الدولة العقائدية.

٩ـ ويسلمنا هذا الذي تقدم الى نقاط نرى ان نختم بها هذا القسم من البحث:

الأولى: ان العلمانية المطبقة في الغرب قد ابتعد معناها الراهن عن الأصل اللاتيني ـ اليوناني الذي قال اللاروس ان الكلمة الفرنسية قد اشتقت منه.

الثانية: ان كل بحث نحاول فيه ان نربط مضمونا راهنا للعلمانية الغربية بالأصل المذكور، فهو بحث عابث ليس له ان يفضي.

الثالثة: ان رفضنا، مع الشيخ، لكون كلمة «العلمانية» العربية منسوبة الى «العلم»، المكسور العين، بحجة انتفاء العلاقة بين الأصل اللاتيني ـ

والتخمين.

وإذا كنا لا نملك، من نشأة الكلمة التي تعنينا، ما يجاوز الظن والتخمين، أفترانا نتشبث بالظن والتخمين، لنبحث، بهما، للكلمة، عن نسب ضائع، ثم نلفق لها نسبا يقارب نسبا عثر عليه الآخرون لكلمتهم في تربة اللاتين او اليونان، ويكون ذلك منا لأن العلم الذي نندفع بحسنا الى النسبة اليه، في مرحلة برز فيها الاندفاع إليه، لا يرتبط بالأصل اللاتيني ـ اليوناني، كما يرى الشيخ؟

إن الضمير اللغوي العربي، الذي فرز النسبة المزيدة بالألف والنون، كشكل عام من أشكاله الصرفية، والذي ما زال أبناؤه يفرزون النماذج اللسانية المشخصة لهذه النسبة، في كل زمان ومكان، (شخصاني، تاريخاني، شكلاني، فرداني، عملاني، الخ...)، انما يجسد مضمونا نحويا يحس أبناء اللسان ان النسبة المجردة لا تؤديه. إنهم يحسون ان ثمة فرقا بين «روحي» و«روحاني»، بين «عقلي» و«عقلاني»، بين «شخصي» و«شخصاني»، بين «علمي» و«علماني»، الخ...، دون ان يكونوا، بالضرورة، مطالبين باظهار هذا الفرق خارج نطاق الكلام، وبغير وسيلة السياق. كأن النسبة المزيدة، في حسهم، نسبة موغلة في النسبة، أشد ارتباطا بالمنسوب اليه، وأكثر دلالة عليه.

*

ما الذي ينطبق من ذلك على كلمة «علمانية» المكسورة العين؟

إننا ننطلق مما يقوم عليه تصورنا لصيغة الكلمة ونشأتها من تقابل طبيعي بين العلم والدين، فنتناول موضوعنا من خلال هذا التقابل.

نشير، أولا، على صعيد النظر الفلسفي الابستمولوجي، الى ما نراه من فرق فكري بين العلم والدين، بين المعرفة العلمية والمعرفة الدينية، فنوضح:

(٣) أوردنا الكلام بنصه الحرفي وصورته التي أثبت بها في المرجع المذكور في الحاشية الأولى، وأحجمنا عن ضبطه بما يفتقر اليه من علامات الوقف، من نقطة، أو فاصلة أو ما شابه.

(٤) كسلطة الخليفة الراشدي الرابع، علي بن أبي طالب، الذي، كما جاء في الخطبة الشقشقية، انثال الناس عليه كعرف الضبع، واجتمعوا حوله كربيضة الغنم، ليتولى أمرهم، فكانت خلافته ظاهرة ديموقراطية حقيقية في الاسلام.

(٥) كسلطة الحكام المدنيين المستبدين في عدد من بلدان العالم الثالث.

(٦) الشيخ عبد الله العلايلي، المعجم: موسوعة لغوية علمية فنية، دار بيروت، ١٩٥٤، القسم الأول، ص ١٧.

ان المعرفة الدينية، المستمدة مباشرة من الذات الالهية، انما تقوم على الايمان.

ان المعرفة العلمية، المستمدة من الظواهر الجزئية المشخصة (L'experience concrete)، إنما تقوم على العقل الذي يقرأ التجربة والظواهر ويبني عليها.

ان معرفة لَدُنيّة (بفتح فضم فكسر) يبلغها الوحي الى نبي مرسل، في فسحة من الزمان تشبه اللمح، ربما تطلب اكتشاف الآدميين لها، بالوسائل البشرية المعتادة، دهورا متمادية من البحث والتنقيب. ومن شاء بحرا من الشواهد يندفق عليه من القرآن مثلا بجسد هذه المقولة، يستطيع العودة الى كتاب فرنسي عنوانه:

La Bible, Le Coran, et Lascience (الكتاب المقدس والقرآن والعلم)، لمؤلفه موريس بوكاي (Bucaille). ان هذا الكتاب يظهر لنا ما يقوم بين القرآن والعلم الحديث من توافق يشمل كثيرا من حقول المعرفة[٣].

ولكننا نشير، من ناحية ثانية تعنينا وترتبط مباشرة بموضوعنا، الى ما أصاب الدين، في الشرق والغرب، من تطبيق خاطىء، وتعلق بالحرف ما أكثر ما خالط الاثم، وما أفضى إليه ذلك من طائفية كانت، بين مجموعات الوطن الواحد، كالنار في الهشيم. وكما ان الهشيم يكون على استعداد طبيعي دائم لالتهام النار التي تلتهمه، كذلك المجموعات الطائفية: فانها، هي أيضا، تكون على استعداد دائم لالتهام الطائفية التي تلتهمها.

وكان المسلك الطبيعي لشعوب الغرب المتحضر: أنها أشاحت عن الدين وجردته من سلطانه على دنياها، وكان لها، من العلم الساري في عروقها، ما صنع لها ايديولوجية علمية وقفت في وجه الايديولوجية الدينية، ثم حيدتها، أخرجتها من الحياة اليومية.

وكان فصل الدين عن الدولة، وكانت العلمانية، وكانت العلمنة...

أما المقلب الثاني من الكوكب، اما الشرق العربي الداجي، ولا سيما لبنان، الذي يقدم لنا عينة نموذجية نيرانها لسنة ناطقة، فلم يكن للعلمانية حتى الآن ان تجاوز منه قولا الى عمل، دون ان يكون لنا، من مقام نحن فيه، أن نجاوز تلميحا الى تصريح.

وإذا كنا، نحن، في تسمية للظاهرة مستمدة من تصورنا للمسألة، قد توجهنا الى العلم الذي هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة، فانتسبنا اليه ونسبنا، ثم صغنا بكلمته كلمتنا، فان الفرنسيين الذين اندرجت كلمتهم في بحثنا، إنما فعلوا شيئا آخر. لقد عثروا، في التراث اللاتيني ـ اليوناني، المتصل بتراثهم، على كلمة رأوا في مضمونها ما يرتبط بالعلمنة أو يشير إليها، كلمة Lakos/Laicus، فاعتمدوها؛ ثم شحنت الكلمة بمعناها، ونمت بمعناها، وارتبطت بمعناها، حتى صار متعذرا فك لفظها عن معناها، وصار بحثنا عن نسبها، خارج نطاق التأريخ لها، عبثا من العبث.

*

ـ جسم + ان + ي= جسماني.

ـ عقل + ان + ي= عقلاني.

ـ . . . .

ولا يخفى ان كل كلمتين متقابلتين، من كلمات هاتين المجموعتين، وما كان من فتتيهما، فبينهما تقارب دلالي ليس له أبدا ان يبلغ درجة التطابق أو المرادفة الكاملة. واذا كان تحديد الفرق بينهما أمرا صعبا على صعيد النظر التجريدي، فانه على صعيد التطبيق، أمر في المتناول. وليس لسياقنا السوي، الذي يطلب إحدى الكلمتين، في أي كلام ننشئه، الا ان يرفض الأخرى. إننا، بالسياق، الذي به دون سواه، تنبض عروق الكلمات، وتتعين مفرداتها في جسد العبارة، انما نحسُّ ان وراء المعنى المتكون بالنسبة البسيطة، معنى ثانيا يغايره ويجاوزه يتكون بالنسبة المزيدة (وهذا ما ولد للسان العربي نسبتيه).

باء ـ إننا، ههنا في الشرق العربي، ولا سيما في لبنان، عندما تفتحت أبصارنا على الغرب المتحضر، والتمعت في بصائرنا أنوار العلم، وعلمنا ان القوم قد فصلوا الدين عن الدنيا، وجردوا الكنيسة من كل سلطان، وسمعنا بالعلمنة ومضمونها، ورحنا نتحدث عنها ونحلم بنعيم منها نخرج إليه من جحيم الطوائف، ورأينا أنفسنا أمام مسمى جديد، أحسسنا حاجة الى التسمية.

ولأن إشاحتنا عن الدين، أي عن الطائفية، لم يكن لها ان تكون، في زمن التطبيق المتحجر، وزمن العلم المتفجر، الا توجها الى العلم، ولأن النقيض الأمثل للدين والطائفية، في مثل هذا الزمن على الأقل، لا يكون الا العلم،

فقد رأينا أنفسنا نندفع نحو العلم ننتسب إليه وننسب له، ونحس، من قوة الاندفاع وحرارة الانتساب وعمق النسبة، ما لم نكتف معه بالنسبة البسيطة، النسبة بالياء.

ولأن في نظامنا النحوي النابض في ضميرنا اللغوي، أي في ملكتنا وسليقتنا، نسبة ثانية أكثر دلالة على المنسوب إليه، النسبة المزيدة بالألف والنون،

فقد رأينا أنفسنا ننطلق من ضميرنا اللغوي انطلاقا عفويا طبيعيا، وسمعنا أنفسنا نقول ما كان نحو:

ـ نريد أن نكون علمانيين،

ـ هذا تفكير علماني،

ـ الأوروبيون سبقونا الى العلمانية فعلمنوا كل شيء،

ـ باتت العلمنة سمة من سمات الحضارة الغربية المعاصرة.

ـ الخ...

لقد تدرجنا، في الاشتقاق، فصغنا من النعت فعلا، وصغنا من الفعل مصدرا؛ ثم كان لنا جذر متكامل عناصره العين واللام والميم والنون...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونعود الى موضوعنا بمزيد من التركيز، وعلى هدي مما قدمنا، فنسجل نقاطاً يتكامل بها تصورنا.

ألف ـ في اللسان العربي، بلغته الفصحى، نسبتان مترابطتان، لهما حقل دلالي ـ نحوي عام تتفقان به وتفترقان بما يعود منه الى كل منهما:

+ نسبة بسيطة مجردة تتكون كلماتها بياء النسبة المعروفة:

ـ روح + ي= روحي.

ـ جسم + ي= جسمي.

ـ عقل + ي= عقلي.

ـ . . .

+ نسبة مزيدة تتكون كلماتها بياء النسبة المعروفة وألف ونون تزادان قبلها على المنسوب إليه:

ـ روحي + ان +ي= روحاني.

(٧) Maurice Bucaille La Bible, le Coran et la Science, Seghers, Paris, 1976.

جيم ـ في اللسان الفرنسي، الذي لنا به اتصال معلوم، كلمة ربما طرحت لترجمتها كلمة «علمانية» المكسورة العين، كلمة Scientisme التي تعني تقديم العلم على المعارف البشرية الأخرى، أو الاكتفاء بالعلم دون سواه طريقا الى الحقيقة. فكيف نخرج من هذه الاشكالية إذا اعتمدنا «العلمانية» المكسورة العين للمضمون الذي يتناوله مجمل البحث؟

ثلاثة مخارج لمحناها:

أولها: أن القاموس الفرنسي ـ العربي المشهور، قاموس «المنهل»، قد ترجم كلمة Scientisme بكلمة «علموية»، كلمة scientiste بكلمة «علموي».

ثانيها: ان انشغال «العلمانية»، المكسورة العين، بالمضمون الذي تناوله بحثنا، وشيوع الكسر فيها شيوعه الكبير، وغلبته على الفتح، كما يقول الشيخ، كفيلة كلها بحجب المعنى الذي تؤديه كلمة scietisme عن كلمة «علمانية» المكسورة العين، وصرف الذهن عنها، تماما كما هي الحال في كلمات أخرى لها معان طغت عليها، واستأثرت بها، وحجبت عنها معاني أخر قمعتها قمعا عن أن تلوح:

ـ كلمة «رسمي»، بمعناها المعروف، تمنعنا منعا قاطعا من استعمالها في نطاق الكلام عن فن الرسم المعروف، تمنعنا، مثلا، من أن نقول مع د. ميشال عاصي في كتابه «الفن والأدب»[٨]:

«ناهيك بأن الأدب، مشتمل أيضا، على المشاهد الرسمية[٩]، بالاضافة اليد اشتماله على الحركة. ألا يطالعك البيت الأنف بمشهدين رسميين [٩] في شطره الأول والثاني؟ ترى لو كان الشاعر رساماً أما كان الشطر الأول لوحة فنية؟ أوما كان الشطر الثاني كذلك، عملاً رسمياً[٩] بذاته؟»

لقد شغلت كلمة «رسمي» بمضمونها الشائع، وبلغ ارتباطها بهذا المضمون ان استعمالها بسواه أمر يرفضه حسنا اللغوي رفضا لا يخفف منه موقف عقلي متأمل محلل متبصر وقع فيه الدكتور عاصي.

ـ كلمة «عاملي»، التي هي نسبة إلى كلمة «عاملة» الداخلة في المركب الاضافي «بنو عاملة»، الذي منه جبل عامل في الجنوب اللبناني، هذه الكلمة قد شغلت بمعناها، وطغى عليها معناها، واستأثر بها معناها، حتى امتنع عليها معنى آخر يحتمله لفظها، معنى النسبة الى «عامل» مفرد عمال. إننا، في لبنان على الأقل، حيث ترتبط الكلمة بمعناها ارتباطا عضويا معروفا، لا نستطيع ان نقول مثلا: «هذه حركة عاملية»، ونحن

(٨) ميشال عاصي، الفن والأدب، دار الأندلس، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٣
(٩)، نفسه، ص ٤٨

الكلام يكون كفيلا بازالة الاشكال، ويكون لنا، في هذه الحالة، نموذج آخر من نماذج ما يسمى «الكلمات المشتركة» المعروفة في لساننا، التي تطلق واحدتها على معنيين اثنين مختلفين او أكثر، ويفصل السياق بين معنى ومعنى، ككلمات: «العين»، و«الانسان»، و«القلم»، و«الدائرة»، و«النقطة»، و«الخط»، الخ. . .

*

وبعد،

فاننا، في ختام هذا العرض، نود الاشارة الى نقاط نذكر بها ونستنتج:

الأولى: ان كلمة «العلم»، المفتوحة العين الساكنة اللام، التي يقول الشيخ عبد الله العلايلي ومن تابعه، ان كلمة «العلمانية» منسوبة إليها، فهي، لذلك بفتح العين لا بكسرها، إنما هي كلمة واهية سابحة في الهواء، ليس لها جذر ثابت في تربة اللسان.

الثانية: ان قولنا بولادة الكلمة من النسبة الى «العلم»، المكسور العين، الذي هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة، هو قول موثق، له، في حاضر اللسان المتحقق، أساس محسوس، ويندرج في قاعدة صرفية أصولية واضحة، ولا يقدح فيه افتراض يقوم عليه.

الثالثة: ان إقامتنا للعلمانية، مصطلحا ومضمونا، على العلم الذي هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة، هي اقامتها على أساس ثابت، وربطها بنسب صريح يتميز من نسب دخيل قال به الفرنسيون لكلمتهم، ولا

«علمانية» المكسورة العين، وصرف الذهن عنها، تماما كما هي الحال في كلمات أخرى لها معان طغت عليها، واستأثرت بها، وحجبت عنها معاني أخر قمعتها قمعا عن أن تلوح:

ـ كلمة «رسمي»، بمعناها المعروف، تمنعنا منعا قاطعا من استعمالها في نطاق الكلام عن فن الرسم المعروف، تمنعنا، مثلا، من أن نقول مع د. ميشال عاصي في كتابه «الفن والأدب»[٨]:

«ناهيك بأن الأدب، مشتمل أيضا، على المشاهد الرسمية[٩]، بالاضافة اليد اشتماله على الحركة. ألا يطالعك البيت الأنف بمشهدين رسميين [٩] في شطره الأول والثاني؟ ترى لو كان الشاعر رساماً أما كان الشطر الأول لوحة فنية؟ أوما كان الشطر الثاني كذلك، عملاً رسمياً[٩] بذاته؟»

لقد شغلت كلمة «رسمي» بمضمونها الشائع، وبلغ ارتباطها بهذا المضمون ان استعمالها بسواه أمر يرفضه حسنا اللغوي رفضا لا يخفف منه موقف عقلي متأمل محلل متبصر وقع فيه الدكتور عاصي.

ـ كلمة «عاملي»، التي هي نسبة إلى كلمة «عاملة» الداخلة في المركب الاضافي «بنو عاملة»، الذي منه جبل عامل في الجنوب اللبناني، هذه الكلمة قد شغلت بمعناها، وطغى عليها معناها، واستأثر بها معناها، حتى امتنع عليها معنى آخر يحتمله لفظها، معنى النسبة الى «عامل» مفرد عمال. إننا، في لبنان على الأقل، حيث ترتبط الكلمة بمعناها ارتباطا عضويا معروفا، لا نستطيع ان نقول مثلا: «هذه حركة عاملية»، ونحن نقصد: «هذه حركة عمالية»، ويكون اختيارنا للنسبة الى المفرد تطبيقا لقاعدة مدرسية تحظر النسبة الى الجمع.

ـ كلمة «جمهوري» لا يتيح لنا ارتباطها الكلي بمعناها الشائع ان نستعملها بمعنى ثان يحتمله لفظها، معنى النسبة الى الجماهير الذي نؤديه بصيغة «جماهيري».

ـ . . . .

ثالثها: أننا، إذا ترجمنا كلمة scientisme بكلمة «علمانية»، المكسورة العين، ورادفنا بينها وبين كلمة «علموية» التي اختارها «المنهل»، فان سياق الكلام يكون كفيلا بازالة الاشكال، ويكون لنا، في هذه الحالة، نموذج آخر من نماذج ما يسمى «الكلمات المشتركة» المعروفة في لساننا، التي تطلق واحدتها على معنيين اثنين مختلفين او أكثر، ويفصل السياق بين معنى ومعنى، ككلمات: «العين»، و«الانسان»، و«القلم»، و«الدائرة»، و«النقطة»، و«الخط»، الخ. . .

*

وبعد،

فاننا، في ختام هذا العرض، نود الاشارة الى نقاط نذكر بها ونستنتج:

الأولى: ان كلمة «العلم»، المفتوحة العين الساكنة اللام، التي يقول الشيخ عبد الله العلايلي ومن تابعه، ان كلمة «العلمانية» منسوبة إليها، فهي، لذلك بفتح العين لا بكسرها، إنما هي كلمة واهية سابحة في الهواء، ليس لها جذر ثابت في تربة اللسان.

الثانية: ان قولنا بولادة الكلمة من النسبة الى «العلم»، المكسور العين، الذي هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة، هو قول موثق، له، في حاضر اللسان المتحقق، أساس محسوس، ويندرج في قاعدة صرفية أصولية واضحة، ولا يقدح فيه افتراض يقوم عليه.

الثالثة: ان إقامتنا للعلمانية، مصطلحا ومضمونا، على العلم الذي هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة، هي اقامتها على أساس ثابت، وربطها بنسب صريح يتميز من نسب دخيل قال به الفرنسيون لكلمتهم، ولا ندري لكلمتنا علاقة به، ثم لا نفهم لماذا استند العلايلي إليه في ضبطه للكلمة بالفتح، ورفضه القاطع ان تكون نسبة الى «العلم» المكسور العين.

الرابعة: ان سبقاً للساننا وتميزا ان تكون كلمة «العلمانية» فيه منسوبة الى العلم الذي هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة، وليس الى «العلم» المفتوح العين الساكن اللام، الذي، كما بينا، لا أساس له في لساننا: لأن العالم الدنيوي الذي تشير إليه الكلمة المتوهمة، يظل، بعناصره وأخلاطه وشوائبه، أدنى مرتبة، في سلم الحضارة، من مرتبة العلم. □

(٨) ميشال عاصي، الفن والأدب، دار الأندلس، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٣
(٩)، نفسه، ص ٤٨

◆

أحمد حاطوم:
كاتب وباحث لغوي من لبنان، له عدد كبير من الأبحاث اللغوية المنشورة في الصحف والدوريات اختار منها مجموعة أصدرها في كتاب عنوانه: «اللغة ليست عقلا من خلال اللسان العربي»، ١٩٨٨.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com